هل هو اشتراكية بديل ؟

بقلم محيي الدين اسماعيل

لا مراء في ان عصرنا هذا هو عصر الخوف .. عصر الفزع والهلع ، كما كان القرن السابع عشر عصر العلوم الرياضية ، والقرن الثامن عشر عصر العلوم الفزيقية ، والقرن التاسع عشر عصر العلوم البيولوجية .

هكذا قال البير كامو . وقد صدق !

ويجدر بنا هنا أن نلخص هذه النظرة او الرؤيا التي يرى العالم من خلالها عدد من المثقفين المتمردين المحتجين ككامو وأضرابه من ابناء هذا الجيل الفزع المهزوز ، قبل الاقدام على طرح اي سؤال بشأن أعراض هذا العصر .

لقد بلغ العلم في نطاقيه التجريبي والنظري في عصرنا هذا حدا قد يرتد بعده الى نفسه ارتدادا ذاتيا لينقض نفسه ، ويدمر العالم والانسان ، على يد الانسان . ونتيجة لهذا الوضع الاستثنائي الذي يشهده الانسان اليوم ، فقد انقطع عن المستقبل ، وبدأ يعيش اللحظة الراهنة بشكل مركز خطير . فالحياة ، لا تكون حياة جديرة بأن تحيا ، الا بان تمتد وتتسع لتشارف تخوم المستقبل . اما الحياة المنحسرة المنكفئة على نفسها .. اما الحياة في اللحظة الراهنة فهي حياة الكلب اللاهث يستظل في ضيء الجدران ! ينقطع فيها عن الزمن ويغمض عينيه ، ثم يلقي بالرجام الصلب على قوقعة كيانه . بيد ان الفارق ، هو ان الانسان كان بمقداره ، فيما مضى ، ان يحتج ويمن ويسب ويشجب ، اما اليوم فان القوى التي يخشاها قوى عمياء صماء بكماء ، او بايدي اناس عمى صم بكم فهم لا يسألون !.. العالم التكنولوجي الحديث لا يصغي الى آهاتنا وتوسلاتنا واحتجاجاتنا .. الآلة قد تحولت الى وحش ذي مخالب فولاذية رهيبة يطبق بها على كوكبنا العاري .. اننا نعيش الان ، وفي اعماقنا جميعا ركام هيروشيما وناغازاكي ! والسنين التي قضيناها في ظلام الفزع والرعب ، كادت ان تجهز على كل شيء جوهري ، هو الثقة بالانسان التي كانت تعمر قلوب ابناء العصور السالفة .

وانى لنا ان نؤمن بالانسان ذلك الايمان السالف المهدور ، ونحن نرى كل يوم ان الانسان يقتل ويعذب ويكذب ويعطل كل قواه الرفيعة — على اوسع نطاق — على النطاق الانساني لا الفردي .

لقد انتهى حوار الانسانية مع نفسها في هذا العصر . ويبدو ان عصر التفهم والفهم قد انتهى . فأنت لا تستطيع اليوم ابدا الا ان تفزع من انسان لا يقوى على التفهم والفهم .. انه شيء مفزع حقا !

هناك من اقلع عن التعبير عن آرائه في عالمنا هذا ... ملايين كثيرة قد ران فوق كياناتها الصمت الكثيف ، اما خوفا وفزعا ، واما لانها لم تعد تؤمن بجدوى التعبير .

مؤامرة من الصمت الرهيب تترنح اليوم فوق الانسانية !

يقولون لك : « لا تتحدث عن حملات التطهير الروسية ، فان حديثك هذا يشجع الحركات الرجعية . » يقولون لك ذلك في ظل التجربة السوفييتية ، فتلوذ بالصمت وانت مكره ! ويقولون لك : « لا تتحدث عن التعاون الانكلو سكسوني مع فرانكو والحركات الفاشية والرجعية ، فان حديثك هذا يشجع الشيوعية والمبادىء الهدامة ! » يقولون لك ذلك في عالمك « الحر » فتلوذ بالصمت ايضا ، فيتحول عالمك هذا الى قبر موحش قاتم .

اذن ، فقد تحول « الخوف » الى عملية تكنيكية تستخدم كافة العلوم النظرية والتطبيقية والسيكاوجية .. الخوف هو علم عصرنا هذا ، ونبتته التي اغتذت من

ولاحظ ماتيو انه كان لها شارب رمادي .

— شكرا كثيرا ياسيدتي ، انك بارعة كممرضة .

فاحمر وجه سيدة المفسة من السرور وقالت :

— اوه ! هذا طبيعي . ان في مهنتنا كثيرا من الاعمال التي تتطلب الدقة .

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن ، وخرجا . وكانا ينظران في رضى الى يديهما الصفقتين المضمدتين . وقالت ايفيش :

— كان لي يدا من خشب .

وكان المرقص قد خلا تقريبا . وكانت لولا توشك ان تغني ، وهي واقفة في وسط الحلبة . وكان بوريس جالسا على طاولتهما ، وكان ينتظرهما . وكانت ذات الثوب الاسود وزوجها قد اختفيا ، وكان باقيا على طاولتهما قدحان نصف ممتلئين ودزينة من السكاير في علبة مفتوحة .

وقال ماتيو : — انه ضلال .

قالت ايفيش : — اجل ، لقد ضللت .

ونظر اليها بوريس نظرة جذل :

— ماذا ؟ هل ذبح كل منكما نفسه ؟

قالت ايفيش في كزازة : — انه سكينك القذر .

فقال بوريس وهو ينظر الى يديهما نظرة فنان :

— يبدو انه يقص جيدا .

وصمتا . وكانت ايفيش تنظر الى يدها المضمدة نظرة عطف . وكان النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسربت الى القاعة ، على غير احساس ، وكان المرقص يبعث برائحة الصباح . وفكر ماتيو : « لؤلؤة ، لقد قالت لؤلؤة صغيرة . » وكان سعيدا ، ولم يكن يفكر بعد بأي شيء عن نفسه ، وكان يحس انه جالس في الخارج على مقعد : في الخارج ، خارج المرقص ، خارج حياته . وابتسم : « لقد قالت ذلك ايضا : انني خالدة »

واخذت لولا تغني .

دماء ابناء هذا الجيل ... انه علم نحن اجهزته وادوات مختبره !

من الذي تسول له نفسه ان يزعم باننا لانعيش في عصر ترين عليه اجنحة الفزع في كل مكان ؟

اذن ، فما كل هذه الاستعدادات الرهيبة يصنعها الانسان الفزع الخائف بيديه وهو راغم ، تمهيدا للدمار والتدمير ؟

الانسان الذي هو اداة الخوف ، يصنع الخوف قبل كل شيء لا الحياة .. حتى الميلاد عاد احتضارا مريرا كالموت ــ على حد تعبير اليوت ــ .

اننا نعيش في فزع مريع ، لاننا نعيش في عالم كله تجريدات آيديولوجية ، وكأنه ارقام والات ، بل كل من فيه من الافراد المذعورين يظن نفسه على حق مطلق والاخرين على باطل مطلق .

يرى « اليوغي » ، ويرى كامو واليوت وامثالهما من الساخطين ، ان السبل الى الخلاص من طريق الالام هذه ، هو « التأمل » و « العمل » طبقا للتأمل .

ولكن المناخ الذي ينيخ على عالمنا هذا لم يعد بيئة صالحة للتأمل . جميعنا تماثيل من خزف . اصابنا الخدر والجمود . ولكننا جميعا « مضطرون للتجربة » ــ كما يقول كاليغولا « كامو » ــ .

فما العمل ؟

هناك اجابات شتيتة لا حصر لها من مفكرين مخلصين ومن مهرجين .. وهناك من يستغرق في النوم ويظن نفسه آمنا ، وهناك من يحدق حتى في ظلمة الزنزانة كما يحدق النسر بوجه الشمس ، وهناك من يصيبه الفتور والملل واليأس فيضع شعارا للتاريخ هو « لا هذا ولا ذاك » ــ كما كان يقول شو بنهور EADEM SEP ALITER غير ان كامو كان جريئا اكثر من غيره يوم ان قال ان علينا ان نتخذ موقفا اكثر ايجابية واكثر عملية ، ذلك ان من واجبنا في اللحظة الراهنة ان نعتبر « الخوف » عاملا مباشرا من عوامل الفاجعة التي يكشف لها عالمنا صدره اليوم . علينا ان نشرع فوراً بعمل شيء ما من اجل اجتثاث هذا الخوف وانتزاع اصوله .

ان هذه المهمة تواجه الكثيرين من المثقفين في العالم ، بعد ان ظهرت اسطورة النظام الاشتراكي في روسيا السوفييتية واقطار الفلك السوفييتي واسطورة النظام اللبرالي الدمقراطي في الغرب الرأسمالي عموما والولايات المتحدة بصفة أخص . هؤلاء المثقفون يرون ان من حق السوفييت ان يقفوا الى جانب ما يؤمنون بانه الحق ، كما يرون ان من حق الامريكان ان يقفوا الى جانب ما يؤمنون بانه الحق . ولكن ليس من حق اى من الجانبين ، كما ليس من حق اي فرد او مجموعة من الافراد ان تفرض على الاخرين بالقوة ما تؤمن به لكي يؤمنوا عن طريق الاذعان .

هؤلاء المثقفون هم ملوك بلا ممالك . وسيظلون كالهولندي الطائر لا ارضا استقروا عليها ولا مملكة احتوتهم ، الى ان تكون لهم الجرأة الكافية بان يرفعوا اصوات الاحتجاج عالية بوجه العالم الاصم الصامت البليد لا من اجلهم واجل ممالكهم الموعودة بل من اجل الانسانية جمعاء .

ان هذا الجو الذي يكتنفه الخوف والفزع من كل مكان ، ان لم يدع هؤلاء للاحتجاج الاخلاقي فقد ضاعت الفرصة منهم الى الابد ، لانهم سيوقعون يومئذ معاهدة الصلح المشينة المذلة مع قوى الخوف في العالم . وعاينا ، كما على كافة هؤلاء المثقفين الصامتين اليوم ، ان ندرك معنى الخوف .

ما الذي يحتويه الخوف ؟ ثم ما الذي يرفضه الخوف ؟

يحتوي الخوف حقيقة واحدة ، ويرفضها في الوقت ذاته ... انه يحتوي عالما يكون فيه القتل امرا مشروعا ، فهو يرفض الا ان تكون الحياة الانسانية امرا تافها مطرحا من سقط المتاع . وعلى الفرد الذي يريد ان يتفهم هذه المعضلة ويقترح الحلول لها ، ان يتخذ موقفا ايجابيا ازاءها .. عليه ان يتساءل في اعماق ضميره : « هل اريد ان اتعرض بطريقة او باخرى للموت او لهجمات الاخرين ؟ » ثم « هل اريد ان اقوم بقتل الاخرين والهجوم عليهم بطريقة او باخرى ؟ »

ان هناك افرادا يجيبون بالنفي على كلا السؤالين لانفين . وهؤلاء الافراد يتعرضون الى سلسلة من النتائج التي تمهد السبل للمعضلة السياسية الكبرى . معضلة تفاهة الحياة واطراحها واعتبارها من سقط المتاع .

تأمل المسألة !

اننا في العصر الحاضر نغازل ونصنع الحب في التلفون . بالوكالة ، وكذلك نمارس قتل الاخرين بالوكالة اي بوساطة الالات لا بواسطة المادة المجردة .

لقد حصلنا على النظافة وخسرنا الفهم والتفاهم ! . حصلنا على النظافة حتى في القتل .. امتلكنا حتى القنابل الذرية النظيفة !

ولكن هل بوسعنا ان نحتج على ذلك ؟ ام ان علينا اما ان نجازف بكل شيء حيال مخاطر هذا العالم الذي نعيش فيه ، او ان نقبله بكل ما فيه من صرامة وقسوة ؟ وهل اذا حاولنا ان نعدل منهج الحياة في عالمنا هذا نعتبر اناسا طوباويين تخلوا عن الواقع ؟

لا ريب في ان النزعة الطوباوية تناقض الواقع بصراحة وتصالبه . وانك طوباوي جدا ، ولا شك ، اذا ما رفضت اعتبار قتل الانسان للانسان ، تحت اية حجة من الحجج امرا مشروعا لان القتل الفردي والجماعي هو من واقع عصرنا المسرف في قسوته والمسرف بايمانه في هذه القسوة وجدواها . انك طوباوي في هذه النظرة ولكنك ستكون يومئذ طوباويا من نوع رفيع . ولكن ما بالنا نفزع من النزعة الطوباوية ، ونرفض ان نوصم بها ؟ أليس الماركسيون والرأسماليون على السواء هم طوباويين ايضا ؟ اليسوا جميعا يزعمون بان انظمتهم ومعتقداتهم تعمل على رفض الواقع وتغييره الى واقع او مجتمع اسعد ؟ فهم ايضا طوباويون بمعنى من المعاني .

وهكذا نجد ، بعد قليل من التأمل ، ان الصراع في عالمنا هذا لن يكون صراعا بين النزعة الطوباوية والنزعة الواقعية ، ولكن بين نزعات طوباوية متباينة ، تدعى كل لنفسها حق تغيير الواقع او الاعتراض عليه . وعلى الانسان الحديث ان يختار بين هذه النزعات الطوباوية الشتيتة ، لكي ينقذ ما يمكن انقاذه ــ على الاقل ــ ، ويضمن امكانية وجود « مستقبل » ، ان عجز عن ضمان « المستقبل » باسره .

ومن هنا نجد ان رفض القتل بجميع صوره من فردية

وجماعية ، امر طوباوي اصيل بقدر ما هو واقعي اصيل ، او هو ـ على الاقل ـ جزء من الايديولوجيات الواقعية . وبذلك يمكننا ان نخطو خطوة اخرى من هذه الفرضية لنعمل على وضع شروط معينة للوضع السياسي في العالم من اجل اقامة وضع دولي بسيط متواضع خلو من المطامح الفروسية البعيدة المنال .

ولقد بات من الامور البديهية في عالمنا هذا ان الانسان الحديث يعيش منذ ٦ آب (اغسطس) ١٩٤٥ تحت اجنحة رهيبة من الفزع وما زال (منذ تفجير اول قنبلة ذرية على هيروشيما) وهذه الحالة من الفزع ، هي المصدر الرئيسي من مصادر القلق الذي يشيع في عالمنا اليوم . فمن الضروري ، في هذه الحال ، ان نعمل شيئا ما للوقوف بوجه هذا الفزع الرهيب مصدر القلق والارتعاد في اعماقنا .

وهنا تبرز امامنا الاشتراكية بتجاربها الاوروبية ـ كما فهمها كامو وامثاله وجيلهم ـ ، باعتبارها احد الحلول لمشكلات العالم ومعضلاته .

اننا سنجعل من القتل والتدمير امرا مشروعا ، اذا ما سلمنا بالمبدأ القائل « الغاية تبرر الواسطة » . واننا لا نؤمن بهذا المبدأ الا اذا كنا اناسا نؤمن ان كل شيء يزول ولا يستحق النظر والاعتبار ، باستثناء النجاح في الحياة ، او اذا كنا من المؤمنين بتلك الفلسفات التي ترى التاريخ هو الحد النهائي في الحياة لانسانية ، او اذا آمنا بما دعا اليه ماركس بعد هيغل من ان العالم اللاطبقي هو المثال الذي يجب ان نعمل من اجله ، وان كل ما يقودنا الى مجتمع بلا طبقات فهو وسيلة طيبة .

وهكذا تبرز المشكلة باشد صورها حدة ازاء الاشتراكيين الاوروبيين عموما ، والاشتراكيين الفرنسيين الذين تلقوا أقسى حكم تاريخي بعد خيانتهم للاشتراكية ذاتها .

كان الاشتراكيون في القارة الاوروبية قد نادوا بانه لا بأس عليهم في استخدام اساليب العنف لتحقيق اهدافهم ، بشرط الا يكون العنف الا وسيلة مؤقتة وان يكون هناك تمييز واضح بين « الوسيلة » و « الغاية » . وفي طليعة الاشتراكيين الذين تنادوا بذلك الاشتراكيون الفرنسيون . ولكن هؤلاء الاشتراكيين جميعا قد نادوا ايضا بان على الاشتراكي ان يكون ثوريا ، ومعنى ذلك انه ليس بوسعه ان يحقق برنامجه الاشتراكي دون اللجوء الى الثورة . ثم انتهى هؤلاء الى انه ليس بمقدور اي اشتراكي الا ان يكون ماركسيا ، كما قال آخرون بانه ليس بمقدور اي ثوري الا ان يكون ماركسيا كذلك .

والمشكلة الخطيرة التي نجمت عن هذا الموقف ، ان استعلن تناقض صريح داخل الحركة الاشتراكية ذاتها ، اذ ان الاشتراكي الذي كان قد اعلن عن موقفه الاخلاقي ازاء « الوسيلة » و « الغاية » عاد فالفى نفسه في نقيضة صريحة على مبادئه الماركسية التي تؤمن بالفتك كوسيلة لتحقيق الهدف الاشتراكي .

ويظل الجيل الاوروبي الساخط المحتج ، والمثقفون القلقون على مصير الانسان من امثال كامو وكوستلر وغيرهما ، يكشفون عن تناقض الدعوات الفكرية والحلول الانسانية في العالم ، ويهشمون الايديولوجيات على كافة المستويات الانسانية من سياسية وفكرية واقتصادية وفلسفية بحثا عن الحق ، فلا يجدون الا خواء مريعا ، فيصرخون : النجاء ! النجاء ! فهم ينظرون الى الحركات الاشتراكية في القارة الاوروبية ، ويجدون فيها امكانية القضاء على القلق الانساني الشامل ، غير انهم بعد تحليلهم هذه الحركات ، يجدون فيها تناقضا بين « الوسيلة » و « الغاية » . هذا التناقض الاخلاقي الصريح في الاشتراكيات الاوروبية ، يهبط بايمان المثقف الاوروبي الى درجة الصفر ويلغيه .

فما العلة في ذلك ؟

العلة هي ان جميع الحركات الاشتراكية الاوروبية قد استندت في آيديولوجياتها على الماركسية ، وان ماركس لم يدع مجالا للاجتهاد فيما اعتبره حقا نهائيا في تفسير التاريخ . وهنا يشير كامو في اكثر من موضع واحد في آثاره ، وفي مقاله الخطير « لا ضحايا ولا جلادون » بصفة اخص ، الى ان دعوة المضي الى ما وراء ماركس دعوة مضحكة وحلم باطل ، لان ماركس قد ذهب الى اقصى ما استنتجه من مذهبه على اسس منطقية واضحة ، وان للشيوعيين الحق في ان يعتمدوا على العنف والفتك ، لانهم اعتمدوا ماركس الذي برر لهم اسلوب العنف في النهج الاشتراكي .

ومن هنا اصبح لزاما على الاشتراكي الاوروبي ان يختار بين سبيلين ، فاما ان يعتبر الغاية تبرر الوسيلة ، واما ان يرفض ماركس جملة وتفصيلا .

ومن الاشتراكيين من رفض الماركسية ، ونادى بان الوسيلة جزء لا يتجزأ من الغاية ، ولكنه بذلك قد فقد قوة الدفع ، لانه عاد خلوا من اي مضمون عقائدي . وهؤلاء هم اشتراكيو الاممية الثانية من امثال رامزي مكدونالد وليون بلوم ، ومنهم من تمسك بتبرير الغاية للاسلوب او الوسيلة ، فهؤلاء هم الشيوعيون الذين انضموا الى هيئة الكومنترن فيما بعد .

هذه هي مجمل النظرة التي يرى المشكلة من خلالها الجيل المثقف الساخط القلق اليوم ، وقد اعتمدت في عرضها على الاراء التي يلتقي فيها البير كامو وشباب المقاومة الفرنسية السرية مع المثقفين الساخطين عموما ، باعتبار ان هذه النظرة تمثل اهم رؤيا انفعل لها العالم المتحضر ، اذ كانت تعبيرا عن خلجات اعماقه . وهي وان عجزت عن طرح الحلول لاجتثاث اصول القلق والتمرد عليه ، ووضع حد لعصر الخوف والهلع ، الا انها نظرة فيها عنصر ايجابي لا يخفى ، لاسيما في نقطة انطلاقها التي هي نقطة انطلاق ثوري ، بدأت في الانسان وظل الانسان مادتها الخام . ولكن بالرغم من ذلك فان فيها ـ بعد نقطة الانطلاق ـ جانبا سلبيا آخر لم يستطع كامو التخلص منه حتى في كتابه « المتمرد » ورسالته « لا ضحايا ولا جلادون » ورسالته الى الصديق الالماني ، كما عجز المثقفون الغاضبون المحتجون كافة من امثال ارثر كوستلر في « اليوغي والقومسير » ـ الاسطورة السوفييتية والواقع ـ ، وقل مثل ذلك عن جميع الساخطين المثقفين من صامتين وناطقين .

فما العمل ؟ ـ كما يقول لنين ـ .. ما هو العمل الذي ينجينا ؟

او ما الفكر ؟ ـ كما يقول كامو ـ .. ما هو الفكر الذي يقودنا للخلاص ؟

ها ان امامنا كوكبا تحول الى سفينة ضالة تجوب مسالك الكون ، تعرى من الطمأنينة والايمان ، وفقد العزاء في كل شيء . يعيش بانتظار كارثة رهيبة بمنى بها لتهشمه وتذروه رمادا في الابعاد ، انكمشت الانسانية

في ظلها وضمرت في اعماق الانسان .

انه عالم مصنوع من اوراق الصحف والبلاغات الرسمية ووكالات الانباء ...

انه عالم الخوف !

فما علاج الخوف ؟ وأنى لنا ان نجتث اعراق الفزع من اعماقنا ؟

وهل يكفي ان يتحول المثقفون الصامتون خوفا او يأسا ، الى جيل من المحتجين المجدفين اللاعنين ليمزقوا نطاق الصمت المضروب حول ثكنات التكديس الذري ، فتندفع وراءهم الشعوب وقد امتلات حناجرها باللعنات ام ان هناك اعباء اخرى ومسؤوليات تشد على اذهان المثقفين ، في كل مكان ، لتنطلق بالتخطيط والتصميم ؟ ان عليهم ان يؤمنوا بان الغد يجب ان يكون افضل من اليوم ، واليوم افضل من امس !

وقد صدق شللي يوم قال في « اوزمانديأس » :

« يا عائدا من دولة الزمن الذاهب ، هلا أخبرتني ماذا رأيت ؟ صخرتان هائلتان في البيد الاقفر . »

ولكن على ركام الصخور الصلعاء في البيد الاقفر استطاع الانسان ان يبني حضارته ، وما زال قادرا على ذلك .

أظن ان هذا هو اول ايمان المثقفين ، واظن ايضا ان اول الحلول لتخليص الانسان من سياط الخوف التي تلهب ظهره ، هو في وضع حلول اشتراكية تزيح الذهنية البيروقراطية العالمية العمياء البكماء التي لم تستمع الى صرخات المجدفين وعرائض الاحتجاج ضد تكنولوجية الموت والدمار .

ولكن ما الذي فعلته تجارب الاشتراكية الاوروبية للعالم ؟

كانت الدعوة الاشتراكية في القارة الاوروبية ، قبل بضعة عقود من السنين ، تبدو وكأنها الحل النهائي لكل مشاكل الانسان ، فظهرت دعوة حارة كهربت جيل المثقفين من ابناء الاممية الثانية ، وظلت على سحرها وجاذبيتها عددا من السنين ، حتى اصبحت بمثابة جواز السفر في الهيئات العمالية والاوساط المثقفة من الصين حتى بيرو — كما قيل عنها — . وقد اكد المثقفون الاوروبيون يومذاك بأن أفضل صرخة اعلنت للبدء في الكفاح الاشتراكي هي صرخة الحرب التي اعلنها ماركس بقوله : « يا عمال العالم اتحدوا ! »

وبعد عام الكارثة في الاتحاد السوفييتي ١٩٣٢ — ١٩٣٣ ، بدت التجربة السوفييتية وكأنها تخطت عقبات المستحيل ، وبدأت « التأميم والتصميم » على اساس اشتراكي ، فتحولت هذه التجربة ، بنظر المثقفين الاوروبيين الحلم الوردي للفردوس الارضي . فما ان جاءت الحرب الاهلية الاسبانية حتى تطوع كل ذلك الجيل دفاعا عن هذه التجربة في نطاقها الخارجي .

وسارت التجربة السوفييتية سيرا حثيثا نحو تطبيق المعادلة اللينينية الجبرية الشهيرة القائلة بان « السوفييتية زائدا الكهربة تساوي الاشتراكية » .

وتحولت هذه المعادلة اللينينية الجبرية على يد ستالين فأصبحت « التصنيع يساوي الاشتراكية » — كما يقول كوستلر . وبذلك انحرفت التجربة السوفييتية انحرافا جذريا عن النهج الاشتراكي ، اذ اعتبرت الثورة الصناعية شيئا مرادفا للاشتراكية التي يجب ان يظل موضوعها الانسان والانسان وحده مع مصيره ، وبذلك أذلت الانسان اشنع اذلال واعتبرته رأس مال ، ولو انه اثمن رأس مال !

ولكن هذا الحلم قد تلاشى ، امام البيروقراطية الستالينية وحملات التطهير الكبرى والغاء التعليم المجاني واقامة حفلات شعبية لمشاهدة عمليات الاعدام واقامة الانصاب من الصلبان الهتلرية المعقوفة في الميدان الاحمر ليمر من تحتها ربنتروب وزير خارجية الرايخ الهتلري .

تلاشى الحلم ، وتمزق ايمان ذلك الجيل الذي كان يضم ستيفن سبندر ولوركاوا غنازيو سيلوني وأرثر كوستلر وكامو وامثالهم ، واخلى مكانه لاشلاء الاممية الثانية ومحترفي السياسة والكياسة من تلاميذ رمزي مكدونالد في بريطانيا وليون بلوم وبريان في فرنسا ولومبروزو ودي اميسز في ايطاليا وغيرهم . وتخلت الحركة الاشتراكية في اوروبا عن طابعها الثوري ، واقتصرت على شعارات الاغراء للفوز باصوات الناخبين للدخول تحت قباب البرلمانات الاوروبية . وانتهت بردود فعل شعبية لا يمكن تفسيرها الا بانها كانت ردود فعل نشأت عن تمزق الاسطورة الاشتراكية في اوروبا كحل حاسم لمعضلات القارة وشتيت قومياتها . فكان الجنوح المسرف نحو اليمين ، كما كان الجنوح نحو الكومنترن .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، فاستقطبت القارة الاوروبية بين النزعة الديغولية — ان صحت التسمية — بكل ما تضمه من حركات ارتجاعية ورجعية وثيوقراطية وبين ايمان بتدويل الحركة الاشتراكية في الكومنفورم الاوروبي . وبذلك انسحقت الاشتراكية الاوروبية بين هاتين الكماشتين حتى لنكاد نقول ان الحركات الاشتراكية

بمناسبة العام الدراسي الجديد ١٩٦٠ — ١٩٦١

تقدم لكم

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

اكبر مجموعة من الكتب المدرسية

عربية — افرنسية — انكليزية

التي عرفناها في اوروبا ، قد دخلت التاريخ ، واتخذت مكانها بين المحنطات الموات .

ذلك ما كان في القارة الاوربية اجمالا ، اما ما كان في الشرق عموما ، فان رد الفعل الذي أحدثته أهم العوامل وأعمقها اثرا وهي الحرب العالمية الثانية ، فقد كان على نقيض رد الفعل الاوروبي لاسباب تاريخية وقومية عديدة . فتحول مركز الثقل في الحركات الاشتراكية من الغرب الى الشرق .

ففي مارس (اذار) ١٩٤٧ ، كان مؤتمر العلاقات الاسيوية قد انعقد في دلهي لبحث عدد من المشاكل التي تواجهها شعوب القارة الاسيوية . وفي احد اجتماعات هذا المؤتمر اقترح عقد اجتماع للاشتراكيين الاسيويين لبحث الحلول الاشتراكية لمختلف القوميات في كبرى القارات .

وفي مارس (اذار) ١٩٥٢ عقد عدد من الاشتراكيين اجتماعا في رانغون تمثلت فيه الحركات الاشتراكية في كل من بورما والهند واندونيسيا ، كما حضر الاجتماع مراقبون اشتراكيون من اليابان . وقد تضمن جدول اعمال هذا الاجتماع عددا من القضايا تختص باذاعة مبادىء الاحزاب الاشتراكية الاسيوية واهدافها ومعالجة موقف الشعوب الاسيوية تجاه السلم العالمي ومشاكل الزراعة والاعمار الاقتصادي والمشاكل الاسيوية المشتركة ، وبالتالي اقامة جهاز دائم لمؤتمر الاحزاب الاشتراكية الاسيوية .

وفي الاجتماعات غير الرسمية التي تقابل فيها المندوبون الاشتراكيون من مختلف الاقطار الاسيوية (مع مندوب عربي افريقي من مصر) اتضح ان هناك اتجاهين رئيسيين يسودان الذهنية الاشتراكية الاسيوية بصفة عامة .

ويتمثل الاول بمعارضة كل من النظامين الرأسمالي والشيوعي معارضة ايديولوجية ، والتزام النهج الاشتراكي على الاسس القومية والظروف الذاتية الخاصة . ويتمثل الثاني باتخاذ موقف سياسي لا ايديولوجي غير منحاز ازاء الكتلتين المتصارعتين . ويتضمن الاول محتوى اشتراكيا سليما ، اما الثاني فقد نشأ بسبب ظروف موضوعية شجعها الاحتراف السياسي للافادة من الصراع العقائدي الدولي .

ويبدو ان المؤتمر الاشتراكي الاول هذا قد دخل بعد ذلك في مناقشات بيروقراطية روتينية عن كيفية اقامة المكتب الدائم والهيئات الاخرى . فتألف المؤتمر والمكتب والسكرتارية ، وعقدت اواصر الصداقة بين هذا المؤتمر والمؤسسة الاوروبية « الاشتراكية الدولية » . واستمرت اجتماعات هذا المؤتمر من ٦ ـ ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٣ . وكان من ابرز الاشتراكيين الثوريين هو جيلاس اليوغوسلافي وكياونين البورمي .

اما الفكرة التي سادت المؤتمر بوجه العموم ، فهي فكرة تأليف كتلة ثالثة في الميدان الدولي باسم الكتلة الثالثة ، او القوة الثالثة . وبذلك انصاع المؤتمر لمفهوم التكتلات والمعسكرات بوعي او دون وعي .

وخرج المؤتمر من كل هذه الجلسات ، وقد فرضت عليه آراء غريبة عن جوهر الاشتراكية ، منها ان الاشتراكية ، شأنها شأن القومية من مستوردات الغرب للشرق ، وان دور الشرق الاسيوي ـ الافريقي هو دور التكملة على النهج الغربي .

وفور انقضاض هذا المؤتمر ، شرع المكتب الدائم للمؤتمر بعقد اجتماعاته في حيدر اباد ما بين ١٠ ـ ١٣ اغسطس (آب) ١٩٥٣ ، ومرة اخرى بعد ذلك ما بين ١٩ ـ ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٤ .

اما المؤتمر بكامل هيئته فلم ينعقد حتى مطلع شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٦ ، في بومبي ، بالرغم من انه كان قد اتخذ قرارا يقضي بعقده بصورة دورية في كل سنتين .

وعلى اية حال ، فان هذا المؤتمر الثاني كان محاولة لصهر النزعات الاشتراكية في الكيانات القومية الاسيوية والافريقية . وكان من ابرز من مثلوا هذا الاتجاه في اجتماعات المؤتمر هو نارايان الهندي الذي اعلن ان نظرته للاشتراكية قد تغيرت تغيرا جذريا ، ثم عالج الحركات الاشتراكية التي برزت في اوروبا وامريكا علاجا فيه اصالة القومية الهندية وصدقها ، ووصمها بالفشل والاخفاق ، لانها انتهت الى حالة غير ثورية ، ساكتة كالصخور الراكدة في اوقيانوس متلاطم الامواج من الرأسمالية والاستعمار .

ومرة اخرى ، لم يسجل هذا المؤتمر الاشتراكي الاسيوي اية طفرة ثورية في النهج الاشتراكي ، بل جل ما فعله انه سجل رغبة الشعوب في القارة الاسيوية والقارة الافريقية ايضا في البحث عن الحلول الاشتراكية لقوميات القارتين السمراوين .

ومنذ ان اتضح بان النزعات الاشتراكية في القارتين الاسيوية والافريقية ، يتحتم عليها ان تصنع حلولا جديدة لم تحققها الشيوعية لا في السوفيتات الروسية ولا في كومونات الصين ، بدا ان مهمتها صعبة شاقة ، تتلخص اولا في تحرير الانسان من عبودية راس المال ، وثانيا في انقاذه من ان يتحول الى رأس مال ـ كما وصفه ستالين ـ ... يتحتم عليها ان تحتفظ بانسانية الانسان ، باوسع واعمق ما في هذه الكلمة من معنى ... أن تخلصه من الاحتكارين المادي والفكري ، وان تنقذه من الاخلاقيات الجشعة . وتلك مهمة تصطدم ـ ولا شك ـ بقلاع هائلة من التقاليد والاخلاقيات البالية ، وظلام مركوم يسود العالم في تشجيعه الراهن وشكوكيته .

ومن هنا يتحمل المثقفون العرب ، مع غيرهم من مثقفي العالم ، افدح المسؤوليات في بناء ايديولوجية تساهم في انقاذ الانسان ، يوم لانجد من العبيد احدا الا على خشبة المسرح !

العالم يتحول الى مخزن للبارود ، ولن تنقذه من الكارثة المقلقة سوى تجربة نساهم فيها ...

في عام ١٦٨٧ فتح الاتراك اثينا ، وحولوا مبنى البارثينون الى مخزن للذخيرة والبارود ، فهاجم اسطول البندقية الاتراك وضرب مخازن العتاد والبارود من البارثينون فانهارت الاعمدة الهائلة الضخمة ، وتشوه جمال انساني لا نظير له ، بيد الانسان الباطش ...

فاي درس لنا من ذلك ؟

افيرضينا ان تتحول الارض الى كيس منتفخ من البارود ؟

اننا ما زلنا امام هذا السؤال الرهيب !

محيي الدين اسماعيل

القاهرة من رابطة الادباء العراقيين الاحرار